فلسـفة الحـب

الحب هو تلك النسمة الحية التي تشيع في جميع الكائنات الحية نبـضها في تـآلف الخلايا وتجاذب الأطيار وتزاوج الإنسان، وقد يكون من الحكمة - إذا رغبنا في أن نذكى إحساسنا به أو نسمو بعواطفنا فيه – أن نقصد جماعة الشعراء نصغي لأناشـيدهم وقـد وهبهم الله من طاقه الإحساس بذه العاطفة وغيرها ما يبلغهم مناهم من تصوير العواطف العميقة حيث يقف العقل حائرا مترددا. فما علاقة الفلسفة بالحب الحق ؟ أن أي فلـسفة هي وجهة نظر يفسر با الفيلسوف مختلف الحقائق ولما كان الحب أحدى هذه الحقـائق فللفلسفة رأيها عنه أو قل فللفلسفات المختلفة آراؤها المختلفة عنه، فواجب علينـا نحـو أنفسنا أن نعرف هذه الآراء. نعم أن الحب عاطفة ولكن المعرفة التامة للعاطفة لا تتطلـب فقط إحساسنا با وإنما يجب أن يضاف إلى ذلك امتحان وتكييف العقل لها حـتى تمـلأ حقيقتها القلب والعقل فيظفر العارف بمتعة الظافر بالنور بعد التخبط في الظـلام ويحـس إحساس المطمئن بعد التردي في مهاوى القلق والشك.

وأول ما يخطر على بال الباحث هو هذا السؤال ما أصل الحب ؟ وتجيبنا الفلـسفة إجابات مختلفات بعضها يرجع للمذهب الواقعي وبعضها للمذهب التصوري وتغلب على البعض الآخر الأبحاث العلمية المادية وفي كل من هذه الآراء نجد جانباً من الحقيقة.

وقبل أن نتكلم عن هذه المذاهب المختلفة يحسن بنا أن نذكر مذهباً ساذجاً نبت في العقول البسيطة الأولى وترك آثاره في معتقدات بعض الجماهير وخلدت اللغة الـشعرية – باستعاراتا وتشبيهاتا – معالمه، يفسر هذا الرأي في الحب بالسحر ويقـول أن المحبـوب يحب بقوة سحرية تكمن فيه هي التي تمكنه من القلوب والأهواء ومن هنا جاء الاعتقـاد بأن بعض الأعمال السحرية قد توقع في شراك الحب من كان عاصياً أو أنـا ترجـع إلى وكر الحبيب من جذبه هوى جديد أو صرفه ملل وسأم، و لغة الغرام تدل علـى هـذه العقلية ومازال ألفاظ السحر ترادف ألفاظ الغرام.

لكن العقل لا يسلم للسحرة بآرائهم ولا يؤمن بالسحر لأن للعقل منطقاً ثابتاً وليس للسحر منطق ما ولأن السحر يمثل حالات فردية خاصة وأحوالا شاذة لا تخضع لقانون أما

العقل فنزاع إلى معرفه القانون لكل حادثة بحاث عن الحقيقة الواحـدة المـشتركة بـين ظاهرات مختلفة الظاهر. لذلك كله فهو ينبذ فكرة السحر ويرى في الحب رأيا آخر، يقول أننا لا نحب لمرآه ولا البحيرة ولا الأنار ولا الأوطان ولكننا نحب الكمال، إذ أن هنـاك كمالات وسجايا تنزع إليها قلوب البشر بالمحبة فإذا لقيتها في شيء جامد أو حي اختصته بواها، أي أن المحبوب لا شأن له في الحب إلا بقدر ما يحمل من هذه السجايا، وهذا رأى يذكرنا سريعاً بفلسفة أفلاطون وخاصة نظرية المثل التي تقابل المخلوقات والـتي يختلـف حظها من الكمال فيختلف حظ الناس منه تبعاً لذلك وتتفاوت أقدارهم بقدر ما فيهم من كمالات.

لما كانت هذه الصفات الكاملة كثيرة متباينة سعى العقل – كعادته – إلى الكشف عن الوحدة المشتركة فيها بحث عن الأصل الأول لجميع هذه الكماليات ووجد ضالته في " الله " فالله هو أصل الكمالات وهو – تبعاً لقربا منه أو بعدها عنه. نحب الملائكة فالناس فالحيوان وهكذا. ومنه يتبادر إلى الحب.

وهنا يتبادر إلى الذهن اعتراض وجيه: إذا كنا نحب الكمال في المحبوب فكيف يتأتى لنا أن نحب ما هو بعيد كل البعد عن الكمال ؟ ويرد أصحاب هذا الرأي أن الخطأ يـأتي من أن الحب لم يأخذ مجراه الطبيعي وأنه يأتي مما يضلل عين المحب عن الحـب الـصادق وليس من الحب نفسه فإذا صدفت نفس عن الحب السامي فالذنب ذنب النفس، يعـزون الفساد إلى النفس البشرية ويذهبون مذاهب مختلفة في تعليل منشأ هذا الفساد فيعلله رسوباً لتمع وتعلله الافلاطونية الحديثة باتصال النفس بالجسد وغير ذلك بما لا يدخل في نطاق بحثنا، وأنك إذا رحضت نفسك مما يعلق با من جراثيم الفساد خلصت للحب الكامـل وخلص الحب للكمال والخير.

تجمع هذه الآراء – كما ترى – على أن سر الحب في المحبوب سواء أكان ذلـك لسحر كامن فيه أو صفة كمال يتحلى با أو كان لقربه من الله أصل الكمالات.

ثم كان لتقدم علم النفس واستقلاله عن الفلسفة أثر قوى في فهم الحب ودراسته لأن علم النفس الحديث يدرس الظاهرات النفسية دراسة علمية والحب عنده ظاهرة ذاتية تتعلق بنفس المحب لا بنفس المحبوب كما رأينا عند أصحاب المذاهب السابقة، ولـذلك عـنى

علماؤه بنقد فلسفة الحب السابقة. فمثلا الفلاسفة السابقون كانوا يعزون أخطاء الحـب إلى فساد النفس ويعتبرون الخطأ شذوذا وأن الحب الطبيعي يسير دائماً في طريق الكمـال فيقول المعترضون أن الخطأ في الحب ليس عرضاً وشذوذاً ولكنه من صميم جوهره فـلا يسمى عاشق من يحب المرآة بقدر ما فيها من جمال ولا يسمى بخيل من يعشق المال بقدر ما فيه من منفعة إنما العاشق هو الذي يحب المرآة فوق ما تستحق أضعافاً بل هـو يحبـها أحياناً عن غير استحقاق وإنما البخيل هو الذي يحب المال حباً جماً أضعاف أضعاف مـا تتطلب المنفعة، فالحب كما يقال أعمى وفيه لوثة جنون لأنه يتوهم الجمال حيث لا جمال ويبالغ في تقديره إذا وجد فلا يقال بعد ذلك أن أصل الحب في المحبوب بل أننـا نقـدر الشيء تبعاً لهوانا من غير تدخل جدارة الشيء أو عدم جدارته. ويقول هؤلاء العلمـاء أن الحب وثبة نفسية ماهيتها أن تمتلك ما تظنه يشبع هواك فما اصل هذه الرغبة ؟ لو كنـا نستطيع أن نحلل النفس تحليلاً وافياً لما خفي علينا من أمرها شيء ولفهمنا أصل الحب حق الفهم ولكن أمر النفس مبهم وعلى هذا فمعرفة أصل الحب لا يمكن إلا أن تكون تقريبية ماسة لبعض جوانبه، قد يكون الأمر في الحيوان سهلاً لأن حياته النفسية بسيطة تسير على وتيرة واحدة وتتحكم فيها الغرائز، أما نفس الإنسان فراقية معقدة أشد تعقيد، نعم قـد يمكن التكلم عن " حب الإنسان " بوجه عام كأنه موضع يخضع للأحكام العامة فتصدق بعض الصدق ولكن الواقع أن الحب فردى ذاتي وأن كل فرد يختص بنوع مـن الحـب ولذلك فطريقه الروائي الذي يريد أن يحكى قصة غرام شخص ما أن يبدأ بسرد تفاصـيل حياته الاجتماعية والنفسية لأنه يعلم بداهة أن حبه يلحق بزاته ويتبع طبيعته الخفية.

مهد ما هدى إليه علم النفس الطريق لتفسير جديد للحب هو تفـسير المـذهب التصوري فهو يرى أن الحب يوجد قبل وجود موضوعه وبعده وأن أدى ظاهر التفكير إلى عكس ذلك لأنه لا يشاهد حب وهو ملتحم بموضوع، والدليل على ذلك أحلام اليقظـة فكثيرا ما نحلم بالحب من غير أن نحسن وموضوع الحب نفسه، و يبـدو الأمـر أكثـر وضوحاً عندما تريد النفس عن التعلق بوى ما فنحسه جثه هامدة بعد أن كـان شـرارة حياة وقادة، وعندما يخلف الكره الحب بعد أن يخيب أمل العاشق فيما يعشق وينكـشف فإذا به عار عن كل ما يحببه إلى النفس، فالحب هنا موجود ولكنه لا يجد ما يروى غلته، و

الحب إذن يخلق ما في موضوعه من جمال هذا على الرأي ومن النادر جداً أن يوجـد في الحبيب بعض ما نضيفه إليه من السجايا أليس قد نكرهه فلا نرى فيه شيئا من الجمـال ؟ فالحب يبدأ كذبه علينا إذا استقر على شيء ما ورأى المذهب التصوري عن الحب متـأثر جداً برأيه من المعرفة فهو يقول أن كل محصول معرفتنا عبارة عن صور قائمة بنفـسنا لا نكاد نشك في حقيقة ما نتصور أنه يقابلها في العالم الخارجي، ولكن كيف يجوز لنـا أن نستوثق من ذلك ؟ من يدرينا أن الصورة التي في نفسي يقابلها موضوع في الخارج مقابلة العلة للمعلول ؟ ويقرر المذهب أننا لا نعرف إلا هذه الصور وعلى نفس المنطق يقـول أن الحب عاطفة نفسية مستقلة عن كل موضوع خارجي، وهي ابعد ما تكون تـأثرا بـأي شيء خارجي بل على العكس فهي تؤثر في الأشياء وتكيفها على حسب مشيئتها. وكان من نتيجة الاعتقاد بذا الرأي أن جنح أصحابه إلى التشاؤم ودعوا إلى مقاطعة الحب، لان فلسفتهم كشفت لهم عما يعبد الناس من آلهة وخير وجمال فإذا با أصنام وخدع وأوهام وإذا كان ذلك كذالك فمن العبث أن نحب أو نبجل خضوعاً منا لعاطفة الجبن التي ترضى أن تنخدع بسعادة مزيفه، ولكن التفسير التصوري للحب يعجز عن تعليل الاختيـار في الحب: قد يخدعك الحب في امرأة ولكن لماذا يخدعك في امرأة بعينها دون سواها ألـيس يشعر هذا بأن للمرآة نفسها تأثيرا ما ؟ ثم كيف تعلل الحب المتبادل بين شخصين ؟

تبقى جماعة من الماديين لا يرضون عن هذه النظريات الـسابقة لأنـهم لا يقبلـون الأبحاث الفلسفية المردة ويميلون إلى تفسير كل شيء تفسيراً ماديـاً ويعنـون بتفـسير الظاهرات النفسية بإرجاعها للعوامل الفسيولوجية والبيولوجية، وهم يرجعون العواطـف المعقدة إلى أصول بسيطة يسمونا الميول فالشراهة مثلاً ليست عندهم حب الطعام المفرط ولكنها ظاهرة نائية للميل الغذائي والحب هنا هو نماية الميل للتناسل، ولكن كيف السبيل إلى إغفال هذه الحقيقة الواقعة وهي أن الحب قد يوجد من غير أن تمازجه فكـرة الميـل للتناسل كما هي الحال في الشذوذ الجنسي والحب الافلاطوني، نعم قد يرد على ذلك بأن المتمع هو الذي يفسر الطبيعة وأن الشذوذ مثلاً قد يأتي من التربية الفاسدة أو الظـروف القاسية ولكن العلماء يقولون أن الشذوذ يوجد في كل الطبيعة الحيوانية.

الحق أن أي نظرية من هذه النظريات لا يمكن أن تكفي لتفسير الحب لأن كلاً منها – مع عدم إنكار ما تحوى من تعمق في التفكير – تبحثه من ناحية واحدة فتفسره تفسيرا بسيطاً لا يتناسب وتعقد عاطفته فهو إما ظاهره ذاتية فقط أو موضوعية بحته أو سحرية لا غير أو أنه ظاهرة بيولوجية والحق أن الحب عاطفة مركبة بل هي أعقد العواطف جميعها ولا عجب فهو محور الوجود الحي والحقيقة أنه لا يوجد إنسان لا يحدوه في عمله حب ما سواء في طفولته أو شبابه أو كهولته أو شيخوخته، كان الحب أداة في يد الحياة تسخرنا به لأغراضها.

الحب عاطفة معقدة جداً نجد فيها الميل البيولوجي والوهم الذاتي والجاذب الموضوعي والإلهام القدسي والسحر الساذج، وأنواع الحب المختلفة تأتى من تغلب أحد عناصره الكثيرة فقد يغلب على النفس ما في الموضوع فيصير الحب مثليا وقد تغلب أوهام النفس فيصير جنونا وقد تتحكم الغريزة فيكون شهويا وهكذا مما لا يحصره عد.

لعل نوع الحب الذي يمنحه قلب الشخص يدل أقوى الدلالة على نفسيته وأسلوبا في الحياة ويكشف عن شخصيته وما فيها من قوة أو ضعف سمو أو انحطاط فالحب على هذا مفتاح سرى نستطيع – مع التأمل وحسن الفهم – أن نلج به مغلق النفوس.